قالت العرب

"والآن أشهد أن حضورك موت وأن غيابك موتان
والآن أمشي على خنجر وأغني...قد عرف الموت أني أحبك
أني أجدد يوماً مضى ... لأحبك يوماً وأمضي..."

الشهداء
العدد 347 – السنة الرابعة عشرة - الأحد 1 مارس 2026 م - 12 رمضان 1447 هـ

زئير الأسد: اغتيال المرشد بين الانهيار والعقد الجديد

الحرس الثورى ببنيته العنقودية الصلبة المرشح الأوفر حظاً لملء الفراغ فى المدى القصير

فى الساعة السابعة وخمس عشرة دقيقة من صباح يوم السبت ٢٨ فبراير ٢٠٢٦، لم يكن الشرق الأوسط يستيقظ على يوم جديد فحسب، بل على يوم سبت توقعته الخوارزميات، حيث واقع جيوبوليتيكى مختلف جذرياً، ففى تلك اللحظة، كانت مئات الطائرات الحربية الإسرائيلية والأمريكية تخترق الأجواء الإيرانية فى عملية أطلقت عليها تل أبيب اسم «زئير الأسد» وأسمتها واشنطن «الغضب الملحمي».

لكن الأكثر إثارة للدهشة، أن هذا التاريخ لم يكن وليد الصدفة، بل كان اليوم ذاته الذى توقعته بدقة نماذج الذكاء الاصطناعى قبل أيام، عندما حللت منصات مثل «غروك» (Grok) المعطيات السياسية والعسكرية وخلصت إلى أن صباح ٢٨ فبراير هو نافذة الضربة الأكثر ترجيحاً، وما جرى لم يكن حلقة جديدة فى مسلسل التوتر الممتد منذ عقود، بل لحظة «تغيير قواعد اللعبة» بامتياز.

ففى غضون ساعات، أعلن الرئيس الأمريكى دونالد ترامب عن اغتيال المرشد الأعلى على خامنئي، إلى جانب قائد الحرس الثورى محمد باكبور ووزير الدفاع العميد عزيز نصر زاده، فى اجتماع كان يُعقد فى مجمع محصن بطهران، والعملية لم تستهدف فقط المنشآت النووية أو الصواريخ الباليستية، بل ذهبت إلى أبعد نقطة فى سلم التصعيد: استهداف رأس النظام.

تصاعد أعمدة الدخان جراء قصف إسرائيلي أمريكي على طهران

فهذه

ليست حرباً تقليدية، هذا زلزال استراتيجى يفتح أبواب الجحيم على مصراعيها، ويضع المنطقة أمام معادلات وجودية لم تختبرها من قبل، فمنذ اللحظات الأولى، انقلبت الموازين:من ضربة إسرائيلية–أمريكية مركزة استهدفت «قطع رأس الأفعى»، إلى رد إيرانى سريع عبر عملية «الوعد الصادق ٤»، التى لم تكتف باستهداف إسرائيل، بل وسعت دائرة النار لتشمل قواعد أمريكية فى قطر والبحرين والكويت والإمارات، لتسقط أول قتيل مدنى فى أبوظبى نتيجة شظايا صاروخية.

فما جرى فجر السبت لم يكن هجوماً عابراً، بل سيمفونية موت قادتها الخوارزميات، فهى حملة استراتيجية متعددة المراحل (Multi-Phase Campaign) خطط لها منذ أشهر، واستخدمت مزيجاً غير مسبوق من الذكاء الاصطناعي، والقدرات الاستخباراتية الخارقة، والتنسيق المشترك بين واشنطن وتل أبيب، وأعادت تعريف مفهوم «الحرب الجراحية» تماماً، ونفذتها نحو ٢٠٠ طائرة حربية من طرازات F–٣٥ و F–١٥ وF–١٦، بالإضافة إلى صواريخ كروز «توماهوك».

وكشفت التسريبات الاستخباراتية أن العملية استندت إلى قراءة معمقة للشبكات العصبية الاصطناعية التى حللت أنماط تحركات القيادة الإيرانية على مدار أشهر، وصولا إلى تحديد اللحظة الأكثر دقة لتنفيذ الضربة: صباح السبت ٢٨ فبراير، حيث اجتمع كبار قادة الحرس الثورى والمرشد الأعلى فى مجمع محصن بطهران، فى اجتماع لم يكن متوقعاً أن يكون الأخير فى حياتهم.

المرحلة الأولى: قطع الأعصاب (Cutting the Nerves)، بدأت العملية بهجوم جوى إسرائيلى مكثف وصاعق، استهدف بدقة متناهية منظومات الدفاع الجوى الإيرانية، تلك العيون الإلكترونية التى كانت تحمى سماء الجمهورية الإسلامية، وركزت الضربات على تعمية الرادارات بعيدة المدى وأنظمة S-٣٠٠ الروسية الصنع، فى عملية جراحية أشبه بقطع الأعصاب البصرية للجسد الإيراني،

بهدف تحقيق التفوق الجوى الكامل (Air Supremacy) وتمهيد الطريق أمام الموجات التالية، وأظهرت لقطات الأقمار الصناعية اللاحقة أن ٨٠٪ من بطاريات الدفاع الجوى الإيرانية تحولت إلى خردة خلال الدقائق الستين الأولى فقط.

المرحلة الثانية: قطع رأس الأفعى (Decapitation Strike)، ما أن تأكدت القيادة الأمريكية من تحييد الدفاعات الجوية، حتى تدخل الثقل العسكرى الأمريكى بكامل هيبته، وانطلقت صواريخ توماهوك من حاملات الطائرات فى بحر العرب،

واخترقت طائرات F–٣٥ و F–١٥ وF–١٦ الأجواء الإيرانية من عدة محاور، لتستهدف ما وصفته الاستخبارات الإسرائيلية «أهداف النظام الحساسة»: مقار القيادة، ومراكز الاتصالات، ومخازن الصواريخ الباليستية تحت الأرض.

وفى مشهد غير مسبوق، استخدمت الولايات المتحدة طائرات هجومية أحادية الاتجاه للمرة الأولى فى هذه العملية، إلى جانب طائرات F–٢٢ التى نُشرت داخل إسرائيل فى خطوة غير معتادة، بسبب رفض بعض الحلفاء استخدام قواعدهم الجوية فى الهجوم.

رصد بالذكاء الاصطناعي

وكانت المرحلة الثانية الأكثر حسماً وإثارة، فقد استهدفت القيادة العليا للنظام فى تزامن مع المرحلة الأولى أذهل المحللين العسكريين (Time-on-Target coordination)، فبينما كانت صواريخ كروز تحلق على ارتفاع منخفض لتضرب منصات الإطلاق الإيرانية، كانت طائرات الشبح الإسرائيلية والأمريكية تلقى حمولتها من القنابل الخارقة للتحصينات على مجمعين سريين فى طهران، حيث كان يجتمع المرشد الأعلى مع وزير الدفاع وقائد الحرس الثوري، وكشفت مصادر استخباراتية أن جهاز المخابرات العسكرية الإسرائيلى تمكن، بمساعدة تقنيات الذكاء الاصطناعي، من رصد توقيت هذا الاجتماع الحاسم من خلال تحليل أنماط الاتصالات وحركة المركبات وحتى استهلاك الطاقة فى المجمعات المحصنة، وهذا الاختراق كان تتويجاً لسنوات من جمع المعلومات وتحليلها عبر أنظمة تعلم آلى قادرة على غربلة كميات هائلة من البيانات وتحويلها إلى معلومات استخباراتية قابلة للتنفيذ.

المرحلة الثالثة: التجريد من القدرات (Deprivation of Abilities)، انتقلت الضربات إلى تدمير البنية التحتية الصاروخية والنووية الإيرانية، مستهدفة منصات الإطلاق تحت الأرض ومراكز الأبحاث النووية ومخازنالوقود، بهدف شل القدرة الإيرانية على الرد لفترة طويلة، ونجحت هذه الضربات فى تدمير ما لا يقل عن ٧٠٪ من الصواريخ الإيرانية الباليستية المخزنة، وفقاً لتقديرات استخباراتية أمريكية، مما اضطر طهران إلى تغيير تكتيكاتها القتالية جذرياً.

وهنا برز التحول الأهم فى المعادلة العسكرية: الرد الإيرانى لم يأت على شكل «الموجة الكاسحة» التى كانت متوقعة، بل لجأت طهران إلى استراتيجية «الإرباك والاستنزاف» (Confusion and Depletion)، حيث بدأت بإطلاق رشقات صاروخية محدودة ومتقطعة، لا تتجاوز العشرات فى كل مرة، بدلاً من إطلاق مئات الصواريخ دفعة واحدة، وهذا النمط الجديد فرض على الإسرائيليين البقاء لفترات أطول فى الملاجئ، لكنه فى المقابل قلل من خطر التعرض لوابل صاروخى واسع ومركز.

والأخطر من ذلك، أن إيران وسعت دائرة النار لتشمل قواعد أمريكية فى قطر والبحرين والكويت والإمارات، فى محاولة واضحة لإشراك دول الخليج فى المعادلة وتحويلها من حرب ثنائية إلى حرب إقليمية شاملة، وقد صرح رئيس الوزراء الإسرائيلى بنيامين نتنياهو أن العملية تهدف إلى «إزالة التهديد الوجودي» الذى تمثله إيران، و«تهيئة الظروف أمام الشعب الإيرانى للتحكم فى مصيره»، بينما أعلن الرئيس ترامب أن الهدف هو «الدفاع عن الشعب الأمريكى عبر القضاء على تهديدات وشيكة صادرة عن النظام الإيراني».

وما يثير القلق حقاً هو أن هذه العملية العسكرية الضخمة نُفذت دون غطاء دولى واسع، حيث رفضت ألمانيا وفرنسا والمملكة المتحدة المشاركة، واكتفت بإصدار بيانات منددة، بينما منعت دول أخرى استخدام قواعدها الجوية، مما اضطر الولايات المتحدة إلى نشر مقاتلات F–٢٢ داخل إسرائيلوالاعتماد على التزود بالوقود جواً، وهذا المشهد يختلف جذرياً عن تدخلات سابقة قادتها واشنطن ضمن تحالفات واسعة.

عزلة استراتيجية لإيران

وفى المقابل، تكتشف إيران فى أحلك لحظاتها أنها تواجه عزلة استراتيجية شبه كاملة، فموقف روسيا والصين كان قاسياً جداً: بكين، المرتبطة مع طهران باتفاقية ٢٥ عاماً بقيمة ٤٠٠ مليار دولار، دعت فور اندلاع الحرب إلى وقف القصف والعودة للحوار، دون تقديم دعم عسكري، وموسكو بدورها عرضت الوساطة ورفضت تسليم أسلحة نوعية، وهذا يثبت نظرية «البراجماتية فوق الأيديولوجيا»؛ فحتى الحلفاء التاريخيون ينظرون إلى إيران كورقة مساومة فى صراعاتهم الكبرى مع الغرب (أوكرانيا، تايوان).

ولكن اللافت هو الدور الصينى فى تعزيز القدرات الدفاعية الإيرانية قبل أشهر من الحرب، فى محاولة لخلق توازن ردعى دون اشتباك مباشر مع واشنطن، فمنذ يناير ٢٠٢٦، كثفت الصين جهودها لاستبدال البرمجيات والأنظمة الغربية فى إيران بأخرى صينية مغلقة ومحصنة، ضمن استراتيجية لتعزيز «السيادة الرقمية» لطهران وحماية شبكاتها الحيوية من الاختراق، بمشروع ضخم لتأمين الإنترنت الإيرانى عبر شبكة وطنية على منصة «هواوي» الصينية، قادر على عزل البلاد عن الإنترنت العالمي، يوفر لإيران «مفتاح قتل رقمي» (Digital Kill Switch) يمكنها من قطع الاتصال بالعالم فى اللحظات الحرجة، ومركز البيانات العملاق لهذا المشروع أقيم تحت الأرض فى مجمع محصن شمال شرق طهران، ليكون بمنأى عن الضربات الصاروخية.

وعلى المستوى الميداني، سلمت بكين لطهران رادار YLC–٨B الصيني، وهو نظام متطور قادر على رصد الطائرات الشبحية مثل F–٣٥ على مسافات تتجاوز ٢٠٠ كيلومتر، مما يحيد إحدىأهم المزايا التكنولوجية الإسرائيلية، كما تعمل الصين على فطام إيران عن نظام GPS الأمريكي، وتحويلها إلى نظام «بيدو» الصيني، لضمان استمرارية عمل صواريخها وطائراتها المسيرة حتى لو عطلت الولايات المتحدة الإشارات الأمريكية، والأخطر أن طهران على وشك إتمام صفقة لشراء صواريخ CM–٣٠٢ الصينية المضادة للسفن، وهى صواريخ أسرع من الصوت يصعب اعتراضها، ويمكنها تهديد القطع البحرية الأمريكية فى الخليج وقلب موازين القوى فى مضيق هرمز، وبهذه الإمدادات، ترسم الصين معادلة جديدة: دعم إيران بالقدرة على الصمود رقمياً وعسكرياً، دون إشعال حرب مباشرة مع واشنطن، لكنها ترفع كلفة المغامرة العسكرية على الجميع.

تساؤلات مصيرية

وبعد هذه الرحلة فى أعماق الخطة العسكرية وتحليل خيوطها الدقيقة، تبرز التساؤلات المصيرية التى تحرق كل عاصمة فى المنطقة، ليس كأسئلة نظرية للاستئناس بها، بل كمعضلات وجودية تبحث عن إجابات فى زحام النيران والدخان؛ السؤال الأول: إعادة التشكيل أم الانهيار؟ «سيناريو الصومالة»، فالفراغ الاستراتيجى الهائل الذى يخلقه مقتل القيادة العليا لا يعنى بالضرورة ولادة نظام جديد وحليف للغرب، فالتقييمات الاستخباراتية الأمريكية تشير إلى أن الحرس الثوري، ببنيته العنقودية الصلبة وقدرته على التكيف، هو المرشح الأوفر حظاً لملء الفراغ على المدى القصير، ولكن المشكلة الأعظم تكمن فى تحول الحرس نفسه إلى «الدولة»، عندها لن نواجه دولة بالمعنى التقليدي، بل كياناً منهاراً لكنه مسلح حتى أسنانه، يحتفظ بترسانة صاروخية ضخمة، لكنه يفقد قبضته على الوكلاء الإقليميين فى لبنان والعراق واليمن، وهذا هو السيناريو الأكثر رعباً: «فوضى منظمة» تحول إيران إلى ثقب أسود استراتيجى يبتلع كل محاولات الاستقرار فى المنطقة.

قصف مكثف يستهدف تبريز في أول ليالي الحرب

والسؤال الثاني: الحرب الإقليمية الشاملة..«تأثير الدومينو العكسي»، فالرد الإيرانى على قواعد فى قطر والبحرين والكويت والإمارات يحمل إجابة واضحة: طهران لن تسمح بفصل ساحات القتال، تمارس بوعى «تأثير الدومينو العكسي»، أى جر دول الخليج إلى الحرب كأطراف متضررة، حتى لو ظلت على الحياد رسمياً، وهذا يضع هذه الدول أمام خيارات مستحيلة: إما طلب حماية أمريكية أكبر (مما يزيد استهدافها)، أو محاولة التوسط لوقف النار (مما يُقرأ كضعف)، وفى كلتا الحالتين، انتقلنا إلى مرحلة «الحرب بالوكالة المباشرة»، حيث أصبحت البنى التحتية النفطية ومحطات تحلية المياه أهدافاً مشروعة.

والسؤال الثالث: الخيار النووي..«القنبلة فى الظل»، وهذا هو السؤال الأكثر تعقيداً، فالخبير ويليام ألبرك (مسؤول سابق فى الناتو) يحدد نقطة الانهيار العصبية: هناك ٤٤٠ كيلوغراما من اليورانيوم المخصب بنسبة ٦٠٪ لا تزال موجودة فى مكان ما، وقد رفضت إيران طوال الأشهر الماضية الكشف عن موقعها للمفتشين الدوليين، فإذا شعرت الخلايا المتبقية من الحرس الثورى أن نهايتها أصبحت وشيكة، فإن «خيار نهاية العالم» (Armageddon Option) قد يطفو على السطح، إما عبر تهريب هذه المواد لصنع جهاز بدائي، أو عبر تهديد صريح باستخدامها، والمفارقة أن الولايات المتحدة قصفت منشآت نطنز وفوردو ودمرت البنية التحتية النووية، لكنها لم تقصف «المادة نفسها» لأنها لا تعرف مكانها تحديداً، وهذه الفجوة المعلوماتية قد تكون كافية لقلب المعادلة فى اللحظات الأخيرة.

أما السؤال الرابع: النظام العالمي..البراغماتية فوق الأيديولوجيا، فعزلة إيران عن حلفائها التقليديين (روسيا والصين) تثبت أن الشعارات الإيديولوجية تتبخر عندما تتصادم مع المصالح الاقتصادية والسياسية الكبرى، فحتى حلفاء إيران ينظرون إليها الآن كورقة مساومة فى صراعاتهم مع الغرب. إيران تكتشف فى أحلك لحظاتها أنها تواجه عزلة استراتيجية شبه كاملة، وهذا وحده كاف لقلب الموازين حتى قبل أن تنتهى المعارك.

ضباب استراتيجي

وفى خضم هذا الضباب الاستراتيجي، لا تملك دول المنطقة، خاصة العربية والخليجية، رفاهية انتظار نتائج الحرب وهى مكتوفة الأيدي، فالسكون فى مثل هذه اللحظات ليس حياداً، بل انتحار بطيء تحت قصف صواريخ لا تعرف التمييز، والمطلوب استراتيجية طوارئ متعددة المسارات:

أولا: التنسيق الأمنى العاجل – غرفة عمليات خليجية موحدة، فلم يعد مقبولاً أن تتعامل كل دولة بمفردها مع صواريخ كروز أو طائرات مسيرة معادية. الضرورة الملحة تقضى بإنشاء غرفة عمليات خليجية مشتركة تحت مظلة مجلس التعاون، تعمل بنبض واحد مع القيادة المركزية الأمريكية، لتبادل المعلومات الاستخبارية فى الوقت الفعلي، وتنسيق الرد على أى أجسام معادية قبل أن تبلغ أهدافها، مع الإبقاء على خط ساخن مع الجانب الإيراني، ليس من باب الثقة، بل لتجنب سوء التقدير الذى قد يحول خطأً فنياً إلى كارثة إقليمية.

ثانياً: السياسة – الحياد الإيجابى مع تحصين الجبهة الداخلية، فعلى الدول العربية أن تعلن بوضوح أنها ليست طرفاً فى الحرب، وتعمل فى الخلفية على تأمين نفسها، والحياد هنا لا يعنى الانكشاف، يجب البدء فوراً بتنفيذ خطط طوارئ لتأمين إمدادات الغذاء والدواء والمياه، عبر تشغيل محطات التحلية بالطاقة الشمسية لتقليل الاعتماد على الوقود الأحفورى الذى بات هدفاً مباشراً، فاستقلالية المياه فى الخليج ليست رفاهية، بل مسألة حياة أو موت.

ثالثاً: حماية الملاحة – تفعيل «حارس الازدهار ٢.٠»، فمع إعلان الحوثيين استئناف هجماتهم فى البحر الأحمر، يتحول المضيق إلى ساحة صراع مفتوحة، ويجب العمل مع التحالف الدولى لتوسيع نطاق عمليات التأمين البحرى لتشمل جميع السفن المتجهة إلى الموانئ الخليجية، مع بروتوكولات واضحة لعبور ناقلات النفط، برؤية أكثر شراسة واستعداداً لأسوأ السيناريوهات.

رابعاً: الاستخبارات الاقتصادية – حماية العمود الفقري، فالهجمات الإيرانية على قواعد فى الإمارات وقطر تعنى أن البنى التحتية المدنية باتت فى مرمى النيران، ويجب تشكيل خلايا استخباراتية متخصصة، تعمل كأجهزة إنذار مبكر بشري، ترصد أى تهديدات تطال المنشآت النفطية ومحطات الطاقة وتحلية المياه، وتؤمن محيطها بأنظمة دفاع جوى قصيرة ومتوسطة المدى، والعمود الفقرى للاقتصاد الخليجى يجب أن يحميه ليس فقط الدرع الصاروخية، بل عيون استخبارية لا تغفل.

خامساً: الملف الإنسانى – الاستعداد لموجة لجوء جديدة، فإذا انهارت إيران أو دخلت فى حرب أهلية، ستشهد الدول المجاورة (تركيا، العراق، باكستان، أفغانستان) موجة نزوح ضخمة بحجم غير مسبوق، وعلى الدول العربية والخليجية التحرك الآن، بالتنسيق مع المنظمات الدولية، لتقديم مساعدات إنسانية مكثفة داخل إيران نفسها، لمحاولة تثبيت السكان فى مناطقهم ومنع تدفق اللاجئين الذى سيزعزع استقرار دول الجوار.

سادساً: الدبلوماسية الوقائية – مبادرة شاملة لوقف النار، فعلى الجامعة العربية ومنظمة التعاون الإسلامى التحرك فوراً لعقد قمة طارئة، ليس لإدانة هذا الطرف أو ذاك، بل لتقديم مبادرة خليجية–عربية–تركية–أوروبية مشتركة لوقف إطلاق النار، وربط ذلك بملف نووى جديد يشمل كل دول المنطقة، فاستمرار الحرب لأسابيع إضافية يعنى أن المنطقة بأسرها ستدخل فى نفق مظلم لا نعرف متى سينتهي، ولا من سيبقى على قيد الحياة ليشهد نهايته.

وتبقى الخلاصة الأكثر إيلاماً أن عملية «زئير الأسد» لم تكن مجرد ضربة عسكرية، بل زلزالاً استراتيجيا أحدث شرخاً عميقاً فى جدار الجمهورية الإسلامية، ذلك الجدار الذى ظل لعقود متماسكاً رغم الحروب والعقوبات، ولكن الشرخ، رغم عمقه، لم يؤد بعد إلى انهيار كامل، بل فتح بوابات الجحيم على مصراعيها.

والمنطقة الآن تقف على حافة الهاوية، تنظر فى اتجاهين متناقضين:

٠ الاتجاه الأول: الفوضى العارمة حيث إيران المنهارة أو المزقة بحرب أهلية تتحول إلى صومال جديدة فى قلب الشرق الأوسط، تمتلك ترسانة صاروخية ومواد نووية مفقودة، مما يغرق المنطقة فى دوامة صراعات بالوكالة وفتن طائفية.

٠ الاتجاه الثاني: عقد شرق أوسطى جديد، تعاد فيه صياغة قواعد الاشتباك، وترسم خرائط نفوذ جديدة، ويعاد هيكلة التحالفات على أسس مختلفة، بشرط توفر قيادات تمتلك من الحكمة ما يفوق ما تمتلكه من صواريخ.

وفى هذه اللحظة الفاصلة من التاريخ، الرهان لم يعد على من سينتصر فى المعركة، بل على من سيمتلك الحكمة الكافية ليخرج من هذا المستنقع بأقل الخسائر، فالبقاء فى الشرق الأوسط الجديد لم يعد مرتبطاً بالقوة وحدها، بل بالقدرة على قراءة المستقبل فى زحام النيران، فالمنطقة التى نعرفها لن تعود كما كانت بعد فجر السبت ٢٨ فبراير ٢٠٢٦، وما تبقى لنا هو أن نقرر أى شكل ستكون عليه بعد أن ينقشع الغبار.

بقلم: أحمدي درويش